حضارة العرب في العصر الجاهلي

الدكتورة ثريا دار*

الحضارة بمعناها العام الواسع هي العادة التي يسير عليها الناس في حياتهم العامة والخاصة في قطر من الأقطار و في زمن من الازمان، وتكون الحضارة أنواعاً وطبقات: هنالك حضارة بدوية وحضارة مدنية. فالبدوهم الذين يقيمون بالبادية والحضرهم سكان المدن. وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن: كمأرب وصنعاء وزبيدوعدن ومن أشهر مدن الجزيرة العربية: مكة والمدينة والطائف.

ويوجد بين حياة البداوة وحياة الحضارة فرق أساسي واحد: يكتفي البدوي بالضروري من أسباب المعاش، بينما يتوسع أهل الحضر في أسباب الترف من المطاعم والملابس والمساكن. ومن هذا الفرق الأساسي تتفرع جميع خصائص البداوة وجميع خصائص الحضارة المدنية بما فى البداوة وفى الحضارة البدوية من المحاسن والمساوئ ونحن نجد أن للبدو خصائص هى:-

البدو قوم رحل ، يرتادون منابت الكلأ و مواقع الغيث، لا يستقر بهم مقام يرحلون بأغنامهم وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حيناً، غذاؤهم لحوم أنعامهم وألبانها ولباسهم من أصوافها و أوبارها، وحياتهم كفاف وقناعة. اللبن والتمر واللحم هي مأكولاتهم، ومن أجل هذا الفقر -

---

* الأستاذة المشاركة ورئيسة القسم العربي بالجامعة الإسلامية، بهاولبور

والشقاء كثرت بينهم الغارات والحروب يأبون أن يكونوا أصحاب حرفة ويرون في ذلك عاراً كبيراً أهم ما يفتخرون به البطولة والقوة على النضال والنزال. وهذا ظاهر فى قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

"وإنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا" (١)

أما أهل المدن فمعيشتهم مستقرة. يعتمدون على الزراعة والصناعة في اليمن أو على التجارة في الحجاز. ويأوون إلى بيوت و مساكن. ويعيشون فى ظل أمن وسلام غالباً.

وكانوا أقل شجاعة وأشد للمال وأكثر توفراً على وسائل الترف والنعيم. وكان اليمنيون أمعن فى الحضارة. وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم مما يدل على إفراط فى الترف من النسيج الفاخر وأطباق الذهب والفضّة وتزين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة. وقد أوصلهم إلى ذلك كثرة الأموال فى أيديهم من طريق التجارة والزراعة.

كان البدو يرفعون أنفسهم فوق الحضر حتى بلغ الأمر بالجاهليين إلى أنهم لم يعترفوا بالتقدم لشاعر إلا إذا كان بدوياً. ثم إن البدو كانوا يتفاضلون فيما بينهم . فقد كان بنوتميم أشرف من باهلة. لأنّ بنو تميم كانوا أكثر عدداً ومالاً وقوةً من بنى باهلة. ثم إن بنو تميم أنفسهم كانوا يتفاضلون أيضاً. فبنو مجاشع (قوم الفرزدق) كانوا أشرف من بنى يربوع (قوم جرير) لأن بنو مجاشع كانوا أكثر عدداً ومالاً وقوةً .

وأساس المجتمع الجاهلي في البوادي والقرى القبيلة، والقبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم . وأفراد القبيلة ينتمون إلى أصل واحد و ينحدرون من أب واحد.

والقبيلة تسمى غالبا باسم الأب كربيعه ومضرو الأوس والخزرج. وقليلاً ما تنتسب إلى الأم كخندف وبجيلة، وقد تعرف القبيلة بحادث حدث

كغسان وهو اسم للماء الذي نزلت به هذه القبيلة، ولكن الكثير الذائع نسبة القبيلة إلى الأب. ويسود أفراد القبيلة العصبية والتناصر والتعاون، وكل فرد يتعصب لقبيلته كما قال دريد بن الصمة.

" وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد"(٢)

ويأتي على رأس القبيلة شيخها وشيخ القبيلة رئيس بالعصبية، أي أن القبيلة هي التي تختار من أفرادها رجلاً تقدمه للرئاسة عليها ثم تطيعه بإرادتها وتطوعاً منها. أما الامتياز الذي كان شيخ القبيلة يتمتع به فهو أنه كان حكماً في المنازعات، وكان حكمه نافذاً على الجميع. والمفروض أيضا ان يكون شيخ القبيلة قائد القبيلة في الحرب ولسانها في السلم وشاعرها، كعمروبن كلثوم، ولكن قد يتفق أن يكون في القبيلة أبطال يأخذون في الحرب شيخ القبيلة. إن عنترة لم يكن سيد بنى عبس ولكنه كان شاعرهم وفارسهم وبطلهم وقائدهم في الغزوات والمعارك، وكذلك يتفق أن يكون في القبيلة شعراء وخطباء يحملون عن شيخ القبيلة أعباء التغني بمحامدها والدفاع عنها والنطق بلسانها، كالحارث ابن حلزة.

والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه وإذا خرج فرد منها على تقاليد القبيلة أو جرّ عليها المغارم تخلت عنه وأعلنت براءتها منه وسمى "خليعاً" وقد يلتجئ فرد إلى غير قبيلة فيسمى "حليفا" ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ومرجعها وملاذها في الشدائد، ولها شاعر أو أكثر يتغنى بمفاخرها وشرفها ومجدها ويذود عنها أعداءها وخصومها.

وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى علاقة عداء غالباً: إغارة وسلب وحرب وانتقام وأخذ بالثأر:

"يغار علينا واترين فيشتفى بنا إن أصبنا، أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحن على شطر"(٣)

الأسرة:

وكانت القبيلة تنقسم إلى أسرة، والأسرة تخضع للأب خضوعا مطلقاً في كل شئ. كان الرجل في الجاهلية عماد الأسرة وربها وصاحب نسبها. وكذلك كان للرجل على امرأته وأولاده حق الحياة والموت وحق الرهن والبيع. في أثناء الحروب كان الآباء يجعلون أولادهم رهائن في أيدى خصومهم. وللمرأة شأن في الأسرة العربية. يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم، ويتغنون بجمالها ويكنونها بكنيتها، ويحترمونها ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب، ويستمعون لمشورة زوجاتهم ونسائهم. وحسبك "أن الحارث بن عوف احد اشراف العرب كانت زوجته الصغيرة بنت اوس بن حارثة الطائى هى التى أشارت عليه بأن يسعى فى الصلح بين عبس وبيان. ففعل فاستحق بذلك حمد الناس ومدح الشعراء وكانوا يستشيرونها في الزواج ويقبلون رأيها.(٤)

وكانوا يحبون أولادهم ويحنون عليهم، وإذا كان بعض العرب قد وأدوا البنات خشية الفقرأو العار فإنما كان ذلك في طبقة منحلة منهم فى بعض بطون من تميم وأسد، وقد كان بعض العرب يكره أن تلد امرأته بنتا. وعلاقة الرجل بإخوانه من قبيلته علاقة محبة وتناصر، كما فى المثل "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، يقول الشاعر قريط بن انيف.

"لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا"(٥)

أسواق العرب:

الأسواق العربية كانت ميداناً لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة، كما يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على

دمائهم وأموالهم. كما قال الألوسى في بلوغ الأرب "وللعرب أسواق يقيمونها شهور السنة وينتقلون من بعضها إلى بعض ويحضرها سائر العرب بما عندهم من حاجة إلى بيع أو شراء "(٦) وتقع هذه الاسواق فى مواضع مختلفة متناثرة من جزيرة العرب فى مواسم وفى أوقات مختلفة. ويباع في الأسواق كل شئ. سلع مختلفة الأصناف والألوان، ومنها البشر والحيوان، وقد ذكر العبيد والإماء مع الحيوانات في بعض الأوامر والأنظمة التي أصدرها الملوك في تنظيم البيع والشراء.

وإن من أهم وأشهر أسواق العرب الكبيرة عند ظهور الاسلام كما ذكر ابن حبيب في المحبر "عشرة أسواق"(٧) وقد نقل احمد بن واضح اليعقوبي فى تاريخ اليعقوبي: إن "أسواق العرب كانت عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم.(٨) وقال السيوطى: "إن أسواق العرب كانت في الجاهلية ثلاثة: مجنة وكانت بالظهران، وعكاظ بين نجد والطائف، و ذوالمجاز بالجانب الأيسر". (٩)

وقد تخصص بعض الجاهليين في عمله ، فمنهم من كان حداداً، حرفته معالجة الحديد، ومنهم من كان نجاراً، ومنهم من كان بزازاً، ومنهم من كان عطاراً، ومنهم من كان جزاراً، حرفته الجزارة وقد يجتمع صنف واحد من الباعة فى مكان واحد، يكونون سوقاً خاصة بهم، فتسمى سوقهم باسم ذلك الصنف، وفى القرآن الكريم استعمل أيضاً فى هذا المعنى. كما قال الله تعالى "الا انهم لياكلون الطعام يمشون في الاسواق".(١٠)

وقد كانت بالقرى والمدن أسواق محلية، فكان بمكة والمدينة أسواق بها مبيعات ويظهر أن ملأ القرى كانو يشرفون عليها ويأخذون ضرائب البيع والشراء منها وقد ورد "ان عمررضى الله عنه استعمل على سوق المدينة السائب بن يزيد وسليمان بن أبى خيثمة و عبدالله بن عتبة بن مسعود" (١١) وكانت عشرة أسواق مشهورة وهذه الأسواق منها ما يقوم فى الأشهر الحرم ولا يقوم فى غيرها لكنه لا يصل أحد إليها الإبخفير ولا يرجع إلا بخفير، وفى هذه الأسواق يمتاز بالخصوص من البلاد "مكة" ومن القبائل "قريش" ولهذا قال الله تعالى فى القرآن المجيد" أو لم نمكن لهم حرما آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ".(١٢)

اللهو:

كانت أوجه اللهو في الجاهلية قليلة. أشهرها شرب الخمر واللهو مع النساء وغناء القيان والقمار، وكانوا يصيدون الوحوش بالخيل أو بالكلاب للنزهة والمتعة كالصيد الموصوف في معلقة امرئ القيس ومعلقة النابغة . فطرفة يرى لذة الانسان في الخمر وإكرام الضيف واللهو مع النساء، يريد أن يتمتع بهذه في الحياة لأنه لن يكون بعد الموت شئ من ذلك:

"كريم، يروى نفسه في حياته ستعلم إن متنا غدا أينا الصدى"(١٣)

وأما الأعشى فإن شيطانه لم يكتف بفتح الأبواب له بل كسرها فكان كل حياته يشرب ويطرب بمثل قوله:

"من خمر عانة قد أتى لختامها حول تسل غمامة المزكوم"(١٤)

وقد تفنن فى وصف الخمر والكأس والساقى والنديم والمطرب فمن ذلك قوله

"وكأس كعين الديك باكرت حدها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب"(١٥)

الحرب:

كانت العرب تعيش قبائل وشعوبا متنافرة متخاصمة، تعتز كل قبيلة بشرفها وكرامتها وعصبيتها. وأسباب الحرب عند العرب كثيرة؛ ترجع إلى التنازع حول الرياسة، وعلى أماكن المياه والعشب، أو إلى الاعتزاز بالعصبية والانتصار لها أو إلى المحافظة على الشرف والكرامة والزود عنهما أو إلى الأخذ بالثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف أو إلى الدفاع عن الملك والتعصب لذى سلطان أو إلى التنازع في مفاخرة من المفاخرات أو منافرة من المنافرات أو إلى الفقر الذائع الذى يدفع إلى النهب والعدوان وكانت الحرب إذا نشبت طالت كثيرا حتى تبلغ أربعين عاماً تظل العداوة فى أثنائها قائمة بين المتحاربين.

وكانت الحرب عند الجاهلين شرعة في الحياة وموروداً من موارد الرزق. وكان الحق عندهم للقوة. كما كان الشأن عند جميع الأمم في جميع العصور إلى اليوم. إن القوى فى الجاهلية كان يغزو من شاء متى شاء. وكان يحمى الماء والعشب إذا شاء وكذلك كانت القبائل القوية، إذا وردت الماء في الأيام العادية، تشرب وتسقى أنعامها قبل القبائل الضعيفة. ففي معلّقة عمرو بن كلثوم.

" وإنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا"(١٦)

وبما ان السلاح كان أنواعا معروفة فى الجاهلية شائعة الاستعمال فى جميع القبائل. فقد كانت قوة القبيلة قائمة على عدد أفرادها وذلك قول عمروبن كلثوم أيضاً:

"ملأنا البرّ حتى ضاق عنا وظهر البحر نملؤه سفينا" (١٧)

وتقوم القوة نفسها على مدرك الظلم في الجاهلية أو المبادرة بالحرب وذلك قول زهير فى معلقته.

"ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم · ومن لا يظلم الناس يظلم"(١٨)

وأيام العرب كثيرة وهذه الأيام كانت أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والبلاغات والملكات. فشعراء القبائل المختلفة طالما نظموا الشعر للتمدح بشجاعة الأبطال وظفرهم في الحرب ووصفوا المعارك المختلفة وأحوالها والقتال وأسلحته والأسرى وذهم ورثوا القتلى.

كما كانوا ينظمونه طلبا للأخذ بالثأر: أو دعوة إلى السلام ومدحا لدعاة السلم والعاملين على إنهاء الحرب كما فعل زهير· مع ما اتصل بذلك من صلح و مغارم ومحامل فى الديات.

فليس بعجيب إذا قلنا أن شعر الحماسة وهو أغلب فنون الشعر عند العرب في جاهليتهم وكذلك جزء كبير من شعر الرثاء والفخر والمدح التي اشتعلت فيها الحروب كما تجد في خطبة هانى بن قبيصة في قومه يحرضهم على الحرب يوم ذى قاروسواها.(١٩)

الأصنام والأوثان:

الحياة الدينية عند العرب مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد فمن وثنية إلى يهودية ونصرانية إلى حنيفية وتحنث· ويهمنا هنا أن نلم بكل هذه الألوان المختلفة من التدين عند العرب. وكانت الوثنية · هي الدين السائد في جزيرة العرب· وهي عبادة الأصنام والأوثان. وكان بدء عبادة الأصنام عند العرب أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيماً شديداً. فلما تكاثروا وضاقت بهم مكة وهاجروا منها كان لا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له وحبا لمكة · فحيثما حل وضعه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة واستمروا على تعظيم هذه الحجارة حينما تأصل فيه حبهم لها وتعظيمهم إياها· ثم استحال هذا التعظيم عادة فعبادة· ثم عمت هذه العبادة حتى وصلت إلى مكة مقر التوحيد.

وكان أول من غير دين ابراهيم واسماعيل فوضع الأصنام فى الكعبة عمرو بن لحى ، وكان حاجب البيت الحرام. شاهد أهل البلقاء يعبدون الاصنام فنصب صنما فى الكعبة سماه "هبل" وجعل عبادته اليه، ومن أشهر الاصنام عند العرب: مناة، كان منصوباً على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله وكان الأوس والخزرج يعظمونه وقد ذكرت "مناة" في القرآن الكريم و "مناة الثالثة الأخرى"(٢٠) واللات: كانت ثقيف تعبدها ومن سدنتها عتاب بن مالك ، ومن أسماء العرب: زيد اللات، وتيم اللات وورد ذكرها فى القرآن الكريم: "أفرايتم اللات والعزى"(٢١) ويقول اوس بن حجر:

"وباللات والعزى ومن دان دينها وبا لله إن ا لله منهن أكبر"(٢٢)

والعزى: وهي شجرة وكانت أعظم الأصنام فكانت قريش تخصها بالزيارة والهدايا والنحر عندها. وكانت العزى بواد من نخلة بأرض الشام وسدنتها من بنى مرة من سليم.

وكانت اليهودية والنصرانية قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية. وكان القسوس والرهبان يردون العرب ويدعون إلى دينهم ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار" وأشهر شعراء النصرانية قس بن ساعدة الايادى وأمية ابن أبى الصلت وعدى بن زيد.(٢٣)

ومن العرب من كان يعبد الكواكب والقمر والشمس والنجم الشعرى، ونشأ في الجاهلية نفر من الحنفاء من أنكر هذه الأديان كلها، وقالوا ما حكاه ا لله عزوجل عنهم "ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ما يهلكنا إلا الدهر".(٢٤)

الكعبة:

كعبة مكة، هي الكعبة الوحيدة التي بقيت محافظة على اسمها ومقامها حتى اليوم، من بين الكعبات التي كانت في الجاهلية، لا ريب في أن الكعبة بنيت لعبادة الله وحده ثم لم تنسب إلى غيره وأن العرب كانوا يحجون إليها ويقدسونها ويقسمون بها وأن ممن أقسم بها وذكر البيت في شعره زهير إذ يقول في معلقته:

"فاقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم"(٢٥)

وفي البلدان "وقد عرفت بالبيت العتيق"(٢٦) وعلى الرغم من أن نفرا من المرتزقين بالدين كانوا قد نصبوا على الكعبة وحوله أصناماً وأوثاناً وبظهور الاسلام عادت الكعبة بيتا لله الواحد وقد نص فى القرآن الكريم، على أن ابراهيم واسماعيل هما اللذان رفعا القواعد من البيت" وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود .... أنت السميع العليم".(٢٧)

ومناسك الحج في الجاهلية كانت قريبة من مناسك الحج في الاسلام، الطواف واستلام الحجر والصعود إلى عرفة والافاضة من عرفة والتضحية والرجم مع فارق أساسى مهم جداً هو أن جميع هذه المناسك في الاسلام طاعة لله وحده حقيقةً ومجازاً. وكانت أشهر الحج فى الجاهلية، لطبيعة الحج فى ذلك الحين، سوقاً تجارية رائجة، وكانت تدر على الرؤسا المكيين وعلى عامتهم خيراً كثيراً.

الكهانة:

كان هذا العلم من العلوم الدخيلة فى أيام الجاهلية شائعاً فيهم وعليه مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب بالحصى والمنجم، وقال فى المحكم "الكاهن القاضى بالغيب"

وقال فى الجامع: العرب تسمى كل من أذن بشئ قبل وقوعه كاهناً. والكهان إنما صاروا كهاناً أى متنبئين بالغيب لأن "الكهنة قوم لهم أذهان حادة ونفوس شديدة وطباع نارية. فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور وساعدتهم بكل ما اتصلت به قدرتهم إليه".(٢٨)

وكان العرب يعتقدون فى الكاهن القدرة على كل شئى وانه رجل قريب من الله يعرف الغيب ويترجم عن الاصنام وينظر فى النجوم ويعرف ما يكتمه الناس وكان مقامه عادة فى بيت الصنم أو فى بيته هو. وكان الكاهن فوق ذلك طبيباً كما كان يتقبل النذور باسم الأصنام ويقدم القرابين عن الراغبين، وكل ذلك منافع اقتصادية له. لهذا كانوا يستشيرونه فى حوائجهم، ويتقاضون إليه فى خصوماتهم ويفزعون إلى كهانهم فى كل مايطرأ عليهم من أمر أو يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد. ويستطبونه فى أمراضهم ويستفتونه فيما أشكل عليهم ويستفسرون منه رؤياهم ويصدرون عن آرائهم فى كثير من شئونهم ففى أخبار بنى أسد "أن حجرا أبا امرئ القيس رق لهم. فبعث فى إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم عوف بن ربيعه الأسدى. فقال" يا عباد! قالوا لبيك ربنا . فقال: الغلاب غير المغلب، فى الابل كأنها الربرب لا يقلق رأسه الصخب. هذا دمه ينثعب. وغداً أول من يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا تجيش نفس جاشية، انبأتكم أنه حجر ضاحية. فركبت بنو اسد كل صعب و ذلول فما أشرق لهم الضحى حتى انتهوا إلى حجر فوجدوه نائما فذبحوه".(٢٩)

وبالجملة فالكهان عندهم هم اهل العلم والفلسفة والطب والقضا والدين. شأن تلك الطبقة من البشر عند سائر الامم القديمة فى بابل وفينيقية

ومصر وغيرها. ومن اقوال العرب "الاحبار فى اليهود، والرهبان فى النصارى، والكهان فى العرب".(٣٠)

قد اشتهر فى الجاهلية عدة كهان تلقانا فى كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وكان العرب يأخذون رأيهم فى المشكلات ولهم فيهم اعتقاد فمن هؤلاء "شق بن الصعب وسطيح بن ربيعة الذئبى".(٣١) ومن كهانهم فى أواخر العصر الجاهلى سواد ابن قارب الأوسى وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنهم المامور الحارثى كاهن بنى الحارث بن كعب و أكهنهم عزى سلمه، يقول الجاحظ "اكهن العرب وأسجعهم سلمه بن أبى حيه وهو الذى يقال له عزى سلمه.(٣٢)

ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات ومن أشهرهن الشعثاء(٣٣) وكاهنة ذى الخصلة(٣٤) والكهانة السعديّة(٣٥) والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية.(٣٦)

وقد اشترك الكهان أنفسهم فى الغزوات وفى الحروب وكانوا يشجعون قومهم ويحثونهم على القتال وكان بعضهم من مشاهير الفرسان مثلاً زهير بن جناب وجذيمة العبسى وقلطف الكاهن، ومازالت الكهانة فى العرب حتى جاء الحديث بإبطالها وهو "لا كهانة بعد النبوة".(٣٧)

العرافة:

العراف هو الّذى يدعى معرفة الشئ المسروق ومكان الضالة ونحوهما. وكان ايضاً طبيبا. بل هو اشهر فى الطب من الكاهن، ولكنه أدنى منه منزلة فان العرافة ليست منصباً دينياً كالكهانة، والعرافون، اكثرهم ينسبون الى بلدانهم وقبائلهم ومن مشاهير العرافين الأبلق الازدى عراف نجد. ورباح بن عجلة عراف اليمامة. وقال ابن خلدون فى مقدمته:

العرافون... كان فى العرب منهم كثير وذكروهم فى أشعارهم قال قائلهم:-

فقلت لعراف اليمامة داوني فانك ان داويتنى لطبيب".(٣٨)

بعض العرب يسمى الكاهن عرافاً ايضاً وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب والذى يجب أن نلاحظه هنا أن طب العرافين هو الطب البدوى القائم على الذكاء والتجربة والاختبار فى الأمور وليس من الطب المزاجى المبنى على علم و دراسة فهو يخطئ ويصيب وفيه عنصر روحى نفسانى ولذلك لاتبرأ به فى الغالب إلا الأمراض النفسية والأدواء اليسيرة.

القيافه:

والقيافة قسمان: قيافة الأثر وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه وقيافة البشر وهى الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه.

اشتهر بولهب بالقيافة وكذلك بنو مدلج كما اشتهر ايضاً بالزجر وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث وكانوا يتفاءلون بالطير الذى يمر من ميامن الانسان ويتشاءمون بالطير الذى يمر من مياسره ويسمون الأول سانحاً والثانى بارحاً ويقول النابغة.

"زعم البوارح أن رحلتنا غداً بذاك خبرنا الغداف الأسود"(٣٩)

وما زالت القيافة معروفة عند العرب حتى الآن وقد اشتهرت بها بنو مدلج خاصة حتى قيل للقائف مدلجى بسبب هذا الاختصاص "ان الكهانة لليمن والزجر لبنى أسد والقيافة لبنى مدلج وأحيا مضر ابن نزار بن معد.(٤٠)

ويرى المسعودى "ان القيافة من الأمور التى برع بها العرب واختصوابها وذكر أن ممن عرف واشتهربها محرزاً المدلجى وقد تعجب الرسول صلى الله عليه وسلم من قيافته وصدقه.(٤١)

الفراسة:

الفراسة هى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الحقيقة كالاستدلال بشكل المرء وأقواله على صفاته وقوله على أخلاقه وطبائعه أو على نسبه إذا شك شاك.

علم الطب:

عرف عرب الجاهلية الطب معرفة جيدة. فقد كانوا فى أول الأمر من الكهنة. وقد وصلهم بعض معلومات من أطباء الفرس والروم واليونان واستفادوا من خبرتهم بعقاقير بلادهم. وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية. سافر فى بلاد الفرس وتعلم الطب بناحية فارس وتمدن هناك وعرف الداء والدواء. وفى ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته "للبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحى وعجائزه، وربما يصح منه البعض. إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير. وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث ابن كلدة". (٤٢) كان الحارث بن كلدة من ثقيف من اهل الطائف ونال شهرة واسعة وعاش حتى جاء الاسلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشير على المرضى أن يذهبوا إليه.

ويضرب المثل بابن حذيم وتروى عنه الحكمة المشهورة "البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء" وهو من تيم وكان يقال "اطب من ابن حذيم" ومنهم ابن ابى رومية التميمى والنضر بن الحارث بن كلدة وكذلك لهم العلم التام فى معالجة الدواب من الخيل والبغال والحمير والابل ونحو ذلك بالكى بالقطران الى غير ذلك من العلاج وفى اللغة العربية أسماء لكثير من الامراض ولكثير من الأدوية وسواها. ولكثير من أوصاف الابل والخيل.

ولما وصف طرفة بن العبد الناقة فى معلقته بستة وثلاثين بيتا فيها كثير من الدقة والتفصيل: كان بلاريب قد لاحظ أموراً كثيرة من تشريح الحيوان؛ لأن عندهم لكل عضو اسما و وصفاً من الرأس إلى القدم وما يتركب منه وماله من الصفات: الى الشعر وأقسامه وألوانه.(٤٣)

النجوم:

لفت نظر الجاهليين من مظاهر الطبيعة النجوم لحاجتهم إليها فى أسفارهم. فقد كانت بلادهم فى أكثرها بادية قليلة المعالم للاستدلال على المواضع والطرق. فاستدلوا عليها بالنجوة لقد وقت امرؤالقيس زيارة حبيبته فى معلقته بقوله:

"تجاوزت أحراسا واهوال معشر علىّ حراص لو يشرون مقتلى

اذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض اثناء الو شاح المفصل"(٤٤)

وكثر اهتمام الجاهليين بالقمر لعظم نوره للاهتداء به فى الليالى ثم لوضوح دلالته على الأيام والسنين.

وكثر اهتمام الجاهليين بالقمر لعظم نوره للاهتداء به فى الليالى ثم لوضوح دلالته على الأيام والسنين.

و لم يعرف النجوم الظاهرة والواضحة فقط بل عرفوا كثيرا من النجوم الخفية حتى جاء فى أمثالهم: "أريها السها فتريني القمر" ان السها نجم خفى. أما مكان السها فهو فى الشمال العربى من العناق: وهى ابن الاوسط من بنات نعش (الدب الاكبر).

ومن هؤلاء المدارك الفلكية سمى الجاهليون أولادهم: سموا: بدراً وقمراً وقميراً وهلالاً والزبرقان: وسموا عطارد وزهرة وسهيلاً والثريا وسماكا وغيرها.

***

الهوامش

١- مختار الشعر الجاهلي· شرحه وحققه وضبطه محمد سيد كيلاني- ٣٧٣/٢- مطبع مصطفى البابى الحلبى- الاولى: ١٣٧٩-١٩٥٩م.

٢- ديوان الحماسة لابى تمام· صححه وشرحه محمود توفيق: ٣٤٣/١- مطبع· محمد على صبيح الازهر الشريف ربيع الثانى لسنة ١٣٢٥هـ.

٣- ديوان الحماسة· ٣٤٨/١.

٤- الامالى لابى على القالى؛ ٢٠٤/٢- دار الآفاق الجديدة بيروت.

٥- ديوان الحماسة- ١٤/١.

٦- بلوغ الارب للآلوسى ٢٦٤/١ الطبعة الثالثة مطابع دار الكتاب العربى بمصر.

٧- كتاب المحبر لابن حبيب· ص ٢٦٧· ٢٦٨- منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

٨- تاريخ اليعقوبي لاحمد بن واضح. ٢٢٦/١.

٩- الكنز المدفون للسيوطى. ص١٨.مكتبة احياء العلوم العربية. فيصل آباد باكستان.

١٠- سورة الفرقان؛ الآية ٢٠.

١١- الاصابة لابن حجر العسقلانى. ١٢/٢ المكتبة التجارية.

١٢- سورة القصص؛ الآية ٥٧.

١٣- مختار الشعر الجاهلى. ٣١٨/١.

١٤- تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ١١٩/١ دار الهلال.

١٥- مختار الشعر الجاهلى ٢/٢١٥.

١٦- مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٧٣.

١٧- مختار الشعر الجاهلى ٢/٣٧٥.

١٨- ديوان زهير بن ابى سلمى. تحقيق و شرح كرم البستانى. ص ٧٨ دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م.

١٩- الامالى: ١/١٦٩.

٢٠- سورة النجم: الآية ٢٠.

٢١- سورة النجم: الآية ١٩.

٢٢- ديوان اوس بن حجر. تحقيق و شرح الدكتور محمد يوسف نجم ص: ١٨ صادر بيروت.

٢٣- الآمالى ٢/٣٧.

٢٤- سورة الجاثية: الآية ٢٤.

٢٥- ديوان زهير بن ابى سلمى: ص ٧٨.

٢٦- معجم البلدان لياقوت الحموى. ١/٥٢١. دار احيا التراث العربى بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

٢٧- سورة البقرة: الآية ١٢٥ وما بعدها.

٢٨- عمدة القارى للإمام بدر الدين العينى. ٢١/٢٧٥. ادارة الطباعة المنيرية مصر.

٢٩- كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة. ٣٧-٣٨. طبع فى مدينة ليدن. مطبعة بريل ١٩٠٢م.

٣٠- السيرة النبوية لابن هشام. ١/٢١٧.

٣١- كشف الظنون لحاجى خليفة. ٢/١٥٢٤. مطبعة نور محمد.

٣٢- البيان والتبيين للجاحظ· تحقيق وشرح· فوزى عطـوى ١٨٩/١ دار صعب بيروت ١٩٤٨م.

٣٣- مجمع الامثـال للميدانـى. ٩١/١. منشـورات دار مكتبـة الحيـاة بيروت. ١٩٦٢ء.

٣٤- مجمع الامثال للميدانى ٢٢٣/١.

٣٥- مجمع الامثال للميدانى ٥٤/٢.

٣٦- السـيرة النبويـة لابـن هشـام ٢٢١/١. دار احيـاء الـتراث العربـى. بيروت. لبنان.

٣٧- كشف الظنون لحاجى خليفه ١٥٢٥/٢.

٣٨- مقدمة ابن خلدون. ١٠٨/١ـ مؤسسة الأعلمى. بيروت· لبنان.

٣٩- ديـوان نابغـة· تحقيـق و شـرح· فـوزى عطـوى ص ١٤٣. الشـركة اللبنانية بيروت· لبنان ١٩٦٥م.

٤٠- مروج الذهب للمسـعودى ١٤٩/٢ دار الاندلـس بـيروت. الطبعـة الاولى ١٩٦٥م.

٤١- مروج الذهب للمسعودى ١٥٠/٢.

٤٢- مقدمة ابن خلدون ٤٩٣/١.

٤٣- مختار الشعر الجاهلى ٣١٣/١-٣١٤.

٤٤- ديوان امرؤ القيس ص ١٣-١٤.

*****